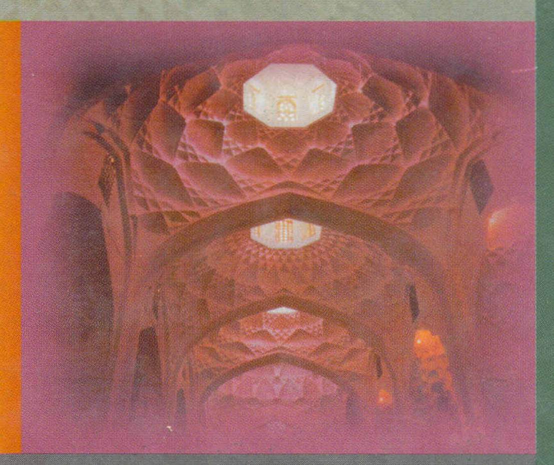


رسائل ابن عربي

الشيخ الأكبر محيي الدين محمد بن علي بن محمد بن أحمد
ابن عربي الحاتمي الطائي
المتوفى سنة ٦٣٨هـ

وضع حواشيه
محمد عبد الكريم النمري

- كتاب الفناء في المشاهدة
- كتاب الألف، وهو كتاب الأحدية
- كتاب أيام الشأن
- كتاب الإعلام بإشارات أهل الإلهام
- رسالة القسم الإلهي
- كتاب الأزل
- كتاب الإسرا إلى مقام الأسرى
- رسالة لا يعول عليه
- كتاب التراجم
- رسالة الانتصار
- كتاب المسائل
- كتاب الإسفار عن نتائج الأسفار
- كتاب حلية الأبدال
- كتاب الوصية



منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رسالة القسم الإلهي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال الشيخ الإمام العالم الصدر الكامل المحقق المتبحر محيي الدين شرف الإسلام لسان الحقائق علامة العالم، قدوة الأكابر محل الأوامر، أعجوبة الدهر، وفريدة العصر أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن العربي الطائي الحاتمي ثم الأندلسي ختم الله له بالحسنى، الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم كثيراً.

أما بعد فإن الله جل اسمه أقسم في كتابه العزيز على أمور في مواضع شتى بأنواع من المخلوقات من الحروف والرياح والملائكة والجبال والشجر والكواكب والساعات والليل والنهار واليوم والشمس والقمر والسماء والأرض والنفس والشفع والوتر والبلد والقرآن والقلم والبقاء والسفن والبهائم والكتاب والسقف والبحر والبيت ومواقع النجوم وما تدركه الأبصار وما لا تدركه الأبصار وفي هذه الآية أقسم بجميع الموجودات قديمها وحديثها وما أقسم بنفسه من كونه الرب إلا في خمسة مواضع في سورة النساء قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥] وفي سورة الحجر قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر: ٩٢ - ٩٣] إلى آخر السورة وفي سورة مريم عليهم السلام قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ [مريم: ٦٨] وفي وسورة الذاريات ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الذاريات: ٢٣] يعني المذكور وهو الرزق والجنة وفي سورة المعارج قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ [المعارج: ٤] وفي أحوال هذا المقسوم عليه بالاسم الرباني سرائر ولطائف وحقائق.

والغرض أن أذكر منها في هذه العجالة قدر ما يعطيه وارد الوقت فإن مواردها كثيرة متشعبة وسميت خمسة أبواب لكل باب قسم يخصه إن شاء الله تعالى.

فصل

اعلم وفقنا الله وإياك أن أسماء الله الحسنى ليست بألفاظ مجردة عن المعاني لتعريف المسمى خاصة كزيد وعمرو وجعفر وخالد الموضوعة لتمييز الأشخاص ولكنها

جلت وعظمت دلائل في معاني في الألوهية تقتضيها تطلق من أجل تلك المعاني في علم الألفاظ لفظ ما يتوصل السامع المتعلم بذلك اللفظ والحروف إن كان مرقوماً إلى المعنى الذي ربط به ليس عندنا من أسمائه سبحانه إلا ما عرفناه به على لسان رسوله خاصة وفي كتبه، وعنده أسماء ما عرفنا بها، ألا ترى أن رسول الله عليه السلام كيف قال في دعائه: «اللهم إني أسألك بكل اسم سميت به نفسك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم غيبك».

وما حصل عندنا من معاني الأسماء إلا ما دل عليه العقل والشرع والكشف لا غير ومع كثرة أسمائه التي عندنا فما أقسم منها إلا باسم الرب خاصة دون غيره من الأسماء وما أقسم به مطلقاً إلا قيده بالإضافة إلى محمد عليه السلام والسماء والأرض والمشارق والمغارب.

فصل

اعلم أن أسماء الله الحسنى وإن كثرت ما عرف منها وما لم يعرف على ثلاث مراتب منها ما يدل على الذات مثل الأول والآخر وما أشبه ذلك، ومنها ما يدل على الصفة كالعليم والخبير والشكور والقادر وما أشبه ذلك، ومنها ما يدل على الفعل كالخالق والرزاق وما أشبه ذلك، وثم أسماء بل أكثرها لها مرتبتان وثلاثة بحكم الاشتراك كالرب بمعنى الثابت للذات وبمعنى المصلح للفعل، وبمعنى المالك للصفة.

وقد أفردنا لمعرفة مراتب الأسماء باباً في كتاب الجداول والدوائر وذكرنا كيفية التخلق بها والتوصل إلى معانيها فلينظر هناك ومع كثرة الأسماء الحسنى فما أقسم سبحانه في القرآن باسم منها، سوى اسم الرب في هذه الخمسة المواضع التي نبهنا عليها، وذلك لأسرار عظيمة يحوي عليها مقام هذا الاسم ننبه على سر واحد منها أو سرين في هذه العجالة لأنها كتاب ساعة، ولهذا الاسم الرب في عينه أمر الله سبحانه وتعالى أن يقسم به نبيه ﷺ حين استنبأه قومه أحق هو فقال له سبحانه: قل يا محمد ﴿إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [يونس: ٥٣] وليس غرضنا في هذه العجالة قسم المخلوقين وإنما العرض قسم الله ولا كل أقسامه إلا ما أقسم عليه بنفسه وهو الذي ذكرناه، وغرضنا إن شاء الله أن نفرد كتاباً لطيفاً فيما أقسم الله به في كتابه العزيز مما ذكرناه لا مما حذفه مقل قوله: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ﴾ [الفتح: ١٨] ، ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا﴾ [الفتح: ٢٧] والله يهب العلم كما وهب العقل.

فصل

واعلم أن هذا الاسم الرب له في اللسان على ما وصل إلينا خمسة أوجه يقال بمعنى الثابت يقال: رب بالمكان إذا ثبت فيه وأقام ويقال: بمعنى المصلح يقال: ربيت

الثوب إذا أصلحت ما فيه من خرق وغيره ويقال: بمعنى المربي من ربيت الصغير أربيته، ويقال: بمعنى السيد قال امرؤ القيس[(١)]:

فما قاتلوا عن ربهم وربيبهم ولا آذنوا أجاراً فيظعن سالما

أي سيدهم وأميرهم ويقال بمعنى المالك يقال: رب الدار ورب الدابة وقال عليه السلام: أن تلد الأمة ربها[(٢)] أي مالكها في أشراط الساعة لما يكون من الهرج والمرج فيفرق بين المرأة وابنها كثرة الفتن وهو صغير فينشأ ويتملك أمه بما وقع من الفتن فيقع لهذا الابن ويشتريها فيصير مالكها وسيدها بحكم الشراء نعوذ بالله من الفتن.

وهذه المعاني كلها يوصف بها الله تعالى فإنه الثابت في وجوده وملكه وسلطانه وعزه وكبريائه وعظمته وهو مصلح العالم العلوي والسفلي والكون والمخلوقات والمبدعات وهو سبحانه أيضاً مربيهم ومغذيهم على حسب ما تعطيه حقائق المغذي والمربي والجوهر يتغذى بعرضه والجسم بأدواته وحفظها عليه وحفظ قواها والأرواح يربيها بالعلوم واللطائف والأسرار وهكذا جميع العالم من أوله إلى آخره.

وهو سبحانه أيضاً سيد العالم وجميع الموجودات بأسرها فإنه غني عنها وهي مفتقرة إليه فله العزة ولنا الذل وله الغنى ولنا الفقر وله أيضاً سبحانه الملك ونحن المملوكون فإنه خالقنا وموجدنا ولهذا يفعل بنا ما يشاء مما يوافق أغراضنا ومما لا يوافقها ولا يتصف في حكمه علينا بما لا يوافقه غرضنا ولا تعطيه عاداتنا بالجور والحيف والظلم والاعتداء فإن هذه الأوصاف إنما تتوجه على من يتصرف في غير ملكه.

وما من تصرف في ملكه ويفعل ما يشاء كيف يشاء وسواء عقلنا سبب ذلك الفعل

---

(١) امرُؤ القَيْس (نحو ١٣٠ ـ ٨٠ ق هـ = نحو ٤٩٧ ـ ٥٤٥ م).
امرؤ القيس بن حُجر بن الحارث الكندي، من بني آكل المرار. أشهر شعراء العرب على الإطلاق، يماني الأصل. مولده بنجد، أو بمخلاف السكاسك باليمن. اشتهر بلقبه، واختلف المؤرخون في اسمه، فقيل: جُنْدج وقيل: مليكة. وقيل: عدي. قال الشعر وهو غلام، وجعل يشبب ويلهو ويعاشر صعاليك العرب، فبلغ ذلك أباه، فنهاه عن سيرته فلم ينته. فأبعده إلى «دمّون» بحضرموت: فأقام زهاء خمس سنين، ثم جعل ينتقل مع أصحابه في أحياء العرب، إلى أن ثار بنو أسد على أبيه فقتلوه فبلغ ذلك امرأ القيس، فنهض من غده فلم يزل حتى ثأر لأبيه من بني أسد، وقال في ذلك شعراً كثيراً مات في أنقرة. وقد جُمع بعض ما ينسب إليه من الشعر في ديوان صغير.
الأعلام ٢/ ١١ ـ ١٢.

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح (الإيمان، ١)، والنسائي في السنن (الإيمان ب ٥)، وأبو داود في السنن (السنة ب ١٦)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٦٣ ـ ١٠/ ٢٠٣)، وأحمد بن حنبل في (المسند ١/ ٥٢، ٢/ ٣٩٥)، والألباني في (إرواء الغليل ١/ ٣٣)، والبغوي في (شرح السنة ١/ ٩)، (بغوي ١/ ٢٨) وابن حجر في (فتح الباري ٥/ ١٧٩).

وعلته أو لم نعقل ولهذا قال جل ثناؤه ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣] لأنه ما تصرف في غير ملكه ولا ملكه والجور والحيف والظلم على من تعطيه البرهان أمور شرعية ليست إلا للشرع لا لنفسها.

فصل

ثم لتعلم أن الاسم الجامع لحقائق الأسماء والموجودات ورئيسها وسلطانها والمهيمن عليها إنما هو الاسم الله وهو دليل الذات والصفات والأسماء ويليه في المرتبة الاسم الرب فلما كانت مرتبة الربوبية على مرتبه الألوهية أقسم بالاسم الرب الذي لهذا المرتبة ولم يعد إلى غيره من الأسماء وكان القسم بهذا الاسم للألوهية على نفسها أمر لا يتصور غيره إذا عامل سبحانه الحقائق بما تقتضي مراتبها وحقائقها فإذا تجوز في هذا المقام الذي ينبغي للربوبية فللمقسم أن يقسم بما شاء الله أعني هذا الاسم كالنقطة من الدائرة وكالمحيط منها وأن الأسماء تليه على وجوهها كالخطوط من النقطة إلى المحيط وكل اسم يقول أنا ثاني مرتبة من الاسم الله لهذا المعنى ولهذا أنطقنا في عالم الكون إذا جاع الجائع يقول: يا رزاق وقد يترك هذا الاسم ويقول: يا الله فلهذا يقول الاسم الرزاق وأنا في المرتبة الثانية وإن قال: يا رب فليس معناه يا رازق وإنما معناه يا مربي أو يا مغذي أو يا مصلح فتفطن لما ذكرناه في مراتب هذه الأسماء ولا أحب الاستقصاء في ذلك لكوني أريد الإيجاز فإنه أنفع وأقرب وأيسر للوقوف عليه فإن الإطالة تورث السآمة والملل ولا سيما والهمم ناقصة ذاهبة في طلب الفوائد والأسرار غير منبعثة لها ولا متعطش إليها.

ثم أنه سبحانه ما أقسم بهذا الاسم مطلقاً وإنما أقسم به مضافاً إلى مخلوق فإن القصد في القسم بالشيء تنويه المقسوم به وتشريفه بشرف من يضاف إليه ذلك القسم، وإن كان هذا الاسم يعم مراتب الأسماء التي هي الذات والصفة والفعل فالاسم في هذا القسم الإلٰهي في هذه الخمسة مواضع إنما يرجع إلى مرتبة الصفة أو الفعل وأما إلى مرتبة الذات فلا إجلالاً للذات ولكونها لا يطاق حمل تجليها في حضرة القسم لأنها حضرة الخصومات والحركات ويستدعي الأغيار الحضور معهم فلا يتمكن أن يبدل هذا الاسم في القسم على الذات هكذا يعطي الحقائق فأشفق سبحانه على القلوب الطالبة نفحات جود الربوبية الذي قال عليه السلام آمراً لنا: تعرضوا لنفحات ربكم(١)، فلو أقسم به مطلقاً غير مقيد بإضافة إلى مخلوق ونظر إليه العارفون لتلاشوا وما بقي لهم رسم ولا يعقلوا الفائدة التي جاء لها القسم وإنما أشهدهم الحق لمعرفة ما أودع في هذا

(١) أخرجه الدولابي في (الكنى والأسماء ٢/ ١٢٠)، والسيوطي في (الدر المنثور ٣/٣١٨، ٤/ ٢٥) وابن كثير في (التفسير ٤/ ٢٣٥)، وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ٦/ ٤٣٥).

القسم من الأسرار فكأنه يقول في قوله سبحانه ﴿فَوَرَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٧] أي فومصلحك ومربيك وسيدك ومالكك.

وكذلك فورب السماء والأرض ورب المشارق والمغارب وأما الرب الثابت فمختص بالذات لا تصح فيه الإضافة البتة فافهم ما أشرنا به إليك في تعظيم هذا الاسم ومرتبته والله يهب الفهم والعقل بمنه.

الباب الأول

في قسم الله جل ثناؤه بالربوبية على صورة تحصيل الإيمان أقسم سبحانه على نفسه باسمه الرب المضاف إلى نبيه محمد عليه السلام في سورة النساء من القرآن العزيز على أقصى غاية مراتب الإيمان فقال عز من قائل: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] لما لم يتوف الكلام على هذه الأقسام على أسباب نزول هذه الآيات المقسوم عليه لهذا لم نذكر سبب نزولها ولا فيمن نزلت وإنما نرتب الكلام على مرتبة الوصف المقسوم عليه خاصة إذ الأسباب والقضايا والقصص موجودة في التفاسير والمصنفات.

وهذا الفن الذي نحن بصدده عزيز وجوده ولا سيما في هذا الزمان فأقول: اعلم أن الإيمان لما كان من أعمال القلوب لأن معناه التصديق اشترط رفع الحرج من النفس عند وقوع الحكم عليها مما لا يوافق غرضها ولا ينبغي للمأمور المحكوم عليه أن يطلب علة معنى الحكم عليه وعلة الأمر لأنه إن لم يمتثل الأمر حتى يعرف علة الأمر كالواقفية فهو مع الذي وقف من أجله لا مع الذي أمره وحكم عليه وإذا وقف على علة الأمر فقد وقف مع نفسه فأين هو ذلك الموطن من مرتبة الإيمان وكمال الصديقية وأين منه تعظيمه لأمر الله وحكمه فيه بسرعة الامتثال مع طيب النفس وشرح الصدر وقبول الحكم والالتذاذ والهيبة، ألا تنظر إلى الصديقين كيف حكم عليه السلام بالإيمان في المجلس الذي وقع فيه حديث البقرة التي تكلمت في بني إسرائيل فقال الحاضرون البقرة تكلم فقال النبي عليه السلام: «آمنت بهذا أنا وأبو بكر وعمر»(١) فقطع عليهما بالإيمان لتحققهما بمقامه وحلولهما في ذروة سنامه.

ومن شرط قوة الإيمان وتحصيله أن لا ننتظر حكم من آمنا به بل نحكمه علينا ابتداء منا تثبيتاً لإيماننا ونرضى بقضائه فينا ولا نبالي بما حكم علينا بما يهون علينا حمله أو ما لا يهون فإذا قضى به علينا مما تعظم مشقته ويصعب حمله طابت به نفوسنا وعظمت اللذة بذلك في قلوبنا وزال عن النفس ما كان شجر بينها وبين خصمها وانقادت

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ٣/ ١٣٦)، والترمذي في (السنن ٣٦٧٧ ـ ٣٦٩٥)، والقرطبي في (التفسير ١٦/ ٦٦).

بحكم الله علينا سهلة ذلولة ومتى لم نجد ذلك في نفوسنا فليس عندنا رائحة من حقيقة الإيمان في جميع حكمه كله علينا كما اتفق لبعض المحققين وكان قد تحقق باحترام الشرع والانقياد إليه في كل حال متلذذاً بذلك مستبشراً به خفيفاً عليه ستين سنة فلما كان يوماً قالت له والدته اسقني شربة ماء فبادر إلى ذلك ووجد في نفسه ثقلاً لذلك الأمر فقال: يا ويلاه يا أسفاه مضى العمر باطلاً، أنا أدعي أن حكم الله عليّ خفيف للذتي به وبري بأمي من حكم الله، فلم ثقل علي هذا الأمر هذا أول دليل على أن كل ما التذذت به من حكم الشريعة كان للنفس فيه عرض ولو كنت مع الحاكم لا مع الحكم لم يثقل على أن أسوق الماء إلى الوالدة.

ثم ينبغي للمؤمن إذا التذ بحكم الشرع عليه أن لا يغلب سلطان الشهوة عليه حتى يتأخر عن إنفاذ الحكم فتكون تلك اللذة عند أهل الحقائق لذة مشومة لكونها أورثت التثبط[1] زماناً ولو كانت حركة واحدة بل ينقاد بظاهره على الفور انقياداً كلياً على الانقياد مع ما وقع به الحكم من الشرع ولهذا قال: تسليماً فأكده بالمصدر للتفرغ في الانقياد إليه وعلى قدر ما يتوقف أو يجده في نفسه حرجاً أو أمراً ينافي وجه اللذة والحب والعشق في ذلك الحكم ينتفي منك التصديق ضرورة ولو كنت ذا فطنة وحضور ما جعلت علم الشريعة والأخبار الواردة من الشارع من باب التقليد مع كون هذا الضعف من العلم من دائرة التقليد لأنه من باب السمع ولكن العاقل يحضر في نفسه مع الدليل والبرهان الذي قام له على صدق هذا الحاكم عليه ويجعله منسحباً على ما حكم به فكان حكمه عليه عنده مقبولاً فذلك الدليل العقلي والأدلة العقلية إذا حصلت مدلولاتها في النفس حتى التذت بحصول العلم وانشرحت وطابت لأنها مجبولة على اللذة بعثورها على العلم بالأشياء من كونها عالمة بذلك لا من كون ذلك المعلوم يصيرها عالمة مثلاً، والحكم الذي توجه عليها من جملة الأشياء فليزمها الفرح به إن كان مؤمناً لانسحاب ذلك البرهان الذي دلت به على صدق الحاكم عليه، هذا إذا كان الآمر هو الرسول عليه السلام أو ما صح عنه من النقل وله مندوحة[2] في غير الرسول عليه السلام من العلماء لاختلافهم وقد قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] فتأمل هذه الآية فإن لها وجهين كبيرين قريبين خلاف ما لها من الوجوه أي خففت عنكم في الحكم وما أنزلت عليكم ما يحرجكم.

وينظر إلى هذا قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق: ٧] وقوله عليه السلام: «بعثت بالحنيفية

(١) ثَبَطَهُ عن الأمر ثَبْطاً: عوّقه وشغله وبطّأ به عنه.

(٢) المَنْدُوحَةُ: السَّعة، والفسحة. يقال: (لا مندوحة لك عن ذلك)؛ أي: لا غنى لك عنه. و(ولك عن هذا الأمر مندوحة): أي سعة وفسحة.

السمحاء»[١]، وقوله عليه السلام: «الدين يسر»[٢]، والوجه الآخر رفع الحديث من النفس عند توجه الحكم بما لا يوافق الغرض وتمجه النفس فكأنه خاطب المؤمنين ومن وجد الحرج ليس بمؤمن وهذا صعب جداً فإذا قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] فللإنسان إذا توجه عليه حكم بفتيا عالم من العلماء وتصعب عليه ذلك أن يبحث عند العلماء المجتهدين هل له في تلك النازلة حكم من الشرع أهون من ذلك فإن وجده عمل به وارتفع الحرج وإن وجد الإجماع في تلك النازلة على ذلك الحكم الذي صعب عليه قبله إن كان مؤمناً طيب النفس وعادت حزونته سهولة ودفعه له قبولاً لما حكم عليه به الله فيصح بذلك عنده إيمانه وهي علامة له على ثبوت الإيمان عنده.

ولما كان هذا المقام الشامخ عسيراً على النفوس نيله أقسم بنفسه جل وتعالى عليه، ولما لم يكن المحكوم عليهم يسمعون ذلك من الله وإنما حكم عليهم بذلك رسول الله الثابت صدقه النائب عن الله وخليفته في الأرض لذلك أضاف الاسم إليه عناية به وشرفاً له صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ [النساء: ٦٥] وجعله بحرف الخطاب إشارة إلى أنه حاضر معنا يقول الله ولم يجعله إضافة عينية فافهم.

الباب الثاني

في قسم الله جل ثناؤه بالربوبية على نفاد سؤال التقرير على المشركين يوم القيامة

أقسم سبحانه على نفسه باسم الرب المضاف إلى نبيه محمد عليه السلام في سورة الحجر في القرآن العزيز فقال عز من قائل: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر: ٩٢ ـ ٩٣] ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الحجر: ٩٤ ـ ٩٦] ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٧ ـ ٩٩] أقسم سبحانه باسمه لنبيه وأضافه إليه إضافة الحضور والمشاهدة تفريجاً لغمه وطرداً لهمه وثلجاً لفؤاده وشرحاً لما ناله من الضيق والحرج مما سمع في سيده ومرسله وحبيبه من رد أمره وخطابه وتكذيبه وهذا هو المقام العالي الذي لا أعلى منه ولا أسنى ويقع فيه التفاضل بين الرسل وبين الأنبياء وبين الأولياء وهذه حضرة الغيرة الإلهية ويسمى هذا الحال العمل الإلهي وما سواه فهو

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل ٥/٢٦٦، ٦، ١١٦، ٢٣٣.

(٢) أخرجه البخاري في (الصحيح ١/١٦)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٦/٣٦٨)، (بغوي ٣/ ٢٥٦)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٥٣٤٣)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ١٢٤٦)، وابن حجر في (فتح الباري ٦/ ١٢٤)، والسيوطي في (جمع الجوامع ٥٤٨٤) وابن عبد البر في (التمهيد ٥/ ١٢١).

العمل النفساني فليس في الأعمال عمل فوق هذا ولا في الأعمال عمل يجاريه ولا يضاهيه، روينا في الخبر المسند إلى رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى يوم القيامة يا عبدي هل عملت لي عملاً قط فيقول: يا رب صليت، وصمت وتصدقت ويذكر أعماله فيقول: يا عبدي كل ذلك لك، هل عملت لي عملاً قط فيقول: يا رب وما هو هذا العمل الذي هو لك فيقول الله تعالى: يا عبدي هل واليت فيَّ ولياً، أو عاديت فِيَّ عدواً، هذا العمل هو لي».

وفي الأحاديث الصحيحة في الحب في الله والبغض في الله من التنويه بأهل هذا الوصف ما أغنى عن إيراده لتداوله بين الناس ولأجل هذا المقام فتن قوم موسى من بعده فناله وكانت كرامة الله له في حضرته التي ناجاه فيها إذ لكل قادم كرامة وذلك لأنه من باب القيام بحق الغير فيقع الفضل فيه على قدر مقام من يقام في حقه.

ولما خرج موسى عليه السلام في حق أهله نوجي فلهذا ضاقت صدور الأنبياء على أممهم وما كانت ترجع إلى نفس النبي ﷺ عفا عنه كما ندب إليه ودعا فيه بالهداية والرحمة تخلقاً إلٰهياً، ألا ترى رسول الله ﷺ لما جرح قال ﷺ: «اللهم إهد قومي فإنهم لا يعلمون»[1].

وليعلم أن الواحد الذي غلب عليه حال التوحيد لا يتألم في هذا المقام، ولا يغار لأنه في حضرة الجمع لا يشاهد تفريقاً البتة وهذا المقام لا يتصور فيه ألم ولا إنكار ولو عاقب وأقام الحدود في الظاهر وأغلظ فالباطن رحمة مجردة وتسليم خالص لا يشوبه شيء ولكن ناقص المشاهدة عند صاحب المقام العالي فإن الفائدة إنما هي في الجمع والوجود وصاحب هذا الحال في الجمع لا في الوجود المطلوب بخلاف الكامل فإن له الوجود والجلال والهيبة لأن موطن الحكم عند المتحقق الكامل لا ينبغي أن يلحظ فيه الإرادة العاصية وإنما ينبغي أن يلحظ فيه الإرادة الآمرة ومرتبة الآمر من كونه آمراً لا من كونه مريداً، ويتعلق بهذا الباب مسألة كبيرة عظيمة الفائدة وهي كون الله لم يغفر للمشركين ولا لأهل التباعات بل ضمن التباعات وجعل مغفرتهم موقوفة على رضا المظلومين فيصلح بينهم يوم القيامة.

ثم أمرنا أن نغضب من أجله ولا نصبر إذا قدرنا، وأمرنا بالعفو والصفح فيما كان من أجلنا وهذا من أخلاق الله ونحن مطلوبون بالتخلق بأخلاق الله فكيف أخذ المشركون وهو باب يرجع إليه وفي حق نفسه فكيف انتصر لنفسه والقواعد الإلٰهية مبنية على غير هذا وقد جاء في الخبر أن الله تعالى يقول يوم القيامة لأهل الحشر: يا عبادي ما كان

(١) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/٢٥٨)، والسيوطي في (الدر المنثور ٢/٢٩٨، ٣/٩٤)، وصاحب (مناهل الصفا ١٦).

بيني وبينكم فقد غفرته لكم فانظروا فيما بينكم فإنه لا يجاوزني ظلم ظالم ويظهر في الشرك أنه فيما بينه وبينهم فلماذا أخذ به ولم يغفره، فاعلم وفقك الله أن الشرك بالله باب من التباعات وظلم الغير ولهذا أخذ الله به فإن التباعات على ضروب في الدماء والأموال والأعراض والشرك من باب تباعات الأعراض وهو من باب الفرية وإن يقال في الشيء ما ليس فيه وهو البهتان وليس في الشرك من الأمور التي بين الله وبين العبد وهو أكبر الكبائر، فإذا كان يوم القيامة وحشر الناس في صعيد واحد وضج المظلومون عند معاينة ما لا طاقة لهم بحمله من الأهوال ضجت الأصناف الذين اتخذوا آلهة من دون الله من حجر وشجر وحيوان وإنسان وكوكب وروحاني وقالوا: يا ربنا خذلنا حقنا ممن افترى علينا ونسب إلينا ما ليس فينا وقال: إنا آلهة فعبدونا ونحن لا نضر ولا ننفع وليس لنا من الأمر شيء فخذلنا حقنا وهنا يقع تفصيل.

فأما كل من عبد من دون الله من حجر وشجر وإنسان مشرك أشرك نفسه مع الله وحيوان وروحاني مشرك أيضاً فإنهم يدخلون مع الذين عبدوهم في نار جهنم ليكون أنكى لهم إذا عاينوهم ومن كان ارتضى منهم ما ينسب إليه كفرعون وغيره فهو مشارك لهم في عذابهم، ومثل الأحجار والأشجار فلم تدخل للعذاب ولكن دخلت لنكايتهم أن تكون معهم آلهتهم كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨] ويقول المشركون هناك: ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنبياء: ٩٩] وقال تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤] وهم المشركون وهم الأصنام المعبودون من دون الله ونفي الأصناف الذين سبقت لهم منا الحسنى وكانوا في النار مبعدين، فاعلم أن الذين عبدوهم لما فقدوهم اتخذوا مثلة على صورتهم عبدوها كالصليب للنصارى والصور التي يصورونها المشركين فتلك الأمثال تدخل معهم النار التي صنعوها على صورة هذا المعصوم السعيد كائناً من كان وهذه ينكيهم جداً، ووجه آخر من نكاية الله لهم أن لأهل الجنة اطلاع على أهل النار يعاين هؤلاء هؤلاء وهؤلاء هؤلاء فيزيد نعيم هؤلاء ويزيد عذاب هؤلاء، يقول الله تعالى: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ [الصافات: ٥٥] قال: ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الصافات: ٥٦ - ٥٧] وقد بانت مسألة الشرك واتضحت.

وأما الخلود فراجع إلى النيات كما الدرجات راجعة إلى الأعمال والاختصاصات كما الدخول راجع إلى الرحمة والعذاب في النار والجنة وكذلك الدركات في مقارنة الدرجات بالأعمال فافهم، وإن هذا الفصل تفصيلاً طويلاً تضيق هذه العجالة عنه فلنرجع إلى مسألتنا ونقول فلما كان عند النبي ﷺ سؤال الحق عباده عن أعمالهم بالتقرير والإنكار والتوبيخ والتقريع من المشقات الكبيرة والآلام العظام أقسم له سبحانه بنفسه

ليشتفي من أعدائه في ذلك الموطن. فقدم له أخبار هذا وأقسم عليه تأكيداً لينقص عنه من ذلك الضيق الذي يجده بعض شيء ولما علم أن نبيه ﷺ في المقام الذي أوصله إليه سبحانه بعنايته التي تقتضي له أن يعامل الوقت كما ينبغي بما ينبغي لما ينبغي بخلاف صاحب الحال فإنه يعامل وقته بما لا ينبغي كما لا ينبغي لما لا ينبغي لأنه أمر إلاهي خبر وإنما هو كذلك بالنظر إلى المقام المطلوب بالهمم أمره بالتسبيح الرباني ليشغله به عن ضيقه وألمه وحرجه، وزواله بالكلية محال من أجل الموطن.

ولهذا قال له في هذا الموطن في آية أخرى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] فجعل من باب الإشارات واللطائف قولهم: حكم الله عليه كما جعل قوله حكم الله علينا وفي هذه الآية تأنيس وبشارة لنا بأن أمر نبيه بالصبر في هذه الآية على الحكم الرباني عليه في ذلك فأخبر بوجود الضيق والمشقة لذلك الحكم فكذلك إذا جاء الحكم منه علينا بما لا يوافق غرض النفس فيأخذه المؤمن عن مشقة وجهد وعناء فإنه لا يسقط عن مرتبة الإيمان كما لم يسقط وكأن هذه الآية تنفس عن الشدة التي في الآية في الباب الأول قوله فلا وربك لا يؤمنون وإن كان الحكم النبوي من مقام النص الاعتصامي وهذا الحكم الذي على النبي عليه السلام من المقام الإلهي على الكشف ومن مقام التضمين فهو ممتزج بضروب توحيد عينه بكونه ولكن لا يضر هذا القدر في هذه المسألة فإنه يؤيدنا قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] وقوله: ﴿ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٦] فقد وصف المقام بالمجاهدة والصبر وتلك المشقة عينها ثم أمره سبحانه بالاشتغال بالرب من مقام التذلل فالرب هنا بمعنى السيد وفي التسبيح بمعنى الثابت فأراد سبحانه بما أمره به من التسبيح الرباني والعبادة الربانية أن يفنيه عنهم إلى يوم يلقاه.

ولما كان القسم بالرب جعل الحكم بالتسبيح لهذا جعل الاسم والعبادة له حتى لا يكون لاسم آخر سلطان عليه في هذه النازلة على هذا المقام فقال له تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [الحجر: ٩٨] وقال: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ﴾ [الحجر: ٩٩] وكان الغرض أن أجعل في آخر كل باب من اللطائف الروحانية والإشارات الإلهية فصلاً كالروح يكون لحسم ذلك الباب لأن الأبواب من المعاملات والمعارف للمعاملات كالأرواح للأجسام فأخذت ذلك إلى منتهى الأبواب فأجعلها هناك بعد آخر كل باب فصولاً خمسة قصار فيما ذكرناه من حقيقة كل آية قسم رباني والله المؤيد.

الباب الثالث

في قسم الله جل ثناؤه على الحشر الروحاني والجسماني: أقسم سبحانه على نفسه باسمه الرب المضاف إلى نبيه محمد عليه السلام في سورة مريم عليها السلام من القرآن

العزيز فقال عز من قائل: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾ [مريم: ٦٨ ـ ٧٠] اعلم وفقك الله أن الإنسان لما قال منكراً ﴿أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ﴾ [مريم: ٦٦] أحاله الله تعالى على نشأته الأولى فقال: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾﴾ [مريم: ٦٧] وهذا فيه وجهان.

الوجه الواحد أن هذا الذي يقال له الإنسان لم يك قبل ذلك إنساناً فشيئاً هنا معناه إنساناً كما تقول في جسد الإنسان إذا مات إنه إنسان بحكم المجاز أي قد كان إنساناً فإنه لا يتغذى ولا يحس ولا ينطق ومتى بطلت الأوصاف الذاتية بطل الموصوف فقد كان الإنسان قبل أن ينطلق عليه اسم إنسان تراباً وماء وهواء وناراً وروحاً قدسياً إلٰهياً وقد كان دماً ثم انتقل نطفة وهي نشأة الأين، وقد كان ذلك الدم براً ولحماً وشحماً وفاكهة وغير ذلك من المطعومات وقد كان الإنسان أشياء لكن لم يكن إنساناً.

والوجه الآخر أن يكون قد أحاله على حقيقته الأولى التي هو فيها إنسان بالقوة وهو أول البدء وهو شيء من لا شيء ولا كان شيئاً وأحاله في هذه الآية على النظر الفكري الذي يستدل به على معرفة الفاعل، ثم إن النبي عليه السلام لما سمع من الإنسان هذا الإنكار وتكذيبه فيما قال الله من حشره الأجساد بعد موتها ولهذا ورد في الخبر الصحيح عن الله تعالى: يقول الله تعالى: شتمني ابن آدم ولم يكن ينبغي له ذلك وكذبني ابن آدم ولم يكن ينبغي له ذلك، أما شتمه إياي فقوله إن لي صاحبة وولداً وأنا الواحد الأحد لم أتخذ صاحبة ولا ولداً، وأما تكذيبه إياي فبقوله إني لا أعيده كما بدأته وليس أول الخلق عليّ بأهون من إعادته[1]، فلما كان في إنكار الحشر والإعادة تكذيب الله جلّ علاؤه شق ذلك على رسول الله ﷺ فإن الصفوة الخالصة من عباد الله تعالى لما أطلعهم الله كشفاً وتحقيقاً بسرائرهم وحقائقهم على جلال الحضرة الإلٰهية وقدسها وكبريائها وعظمتها ملأت العظمة والجلال قلوبهم وأسرارهم ثم نظروا في عالم الكون والفساد فرأوا ما هم عليه من عدم احترام خالقهم وكلامهم فيه بما لا ينبغي ونسبتهم إليه بما لا يليق به، وشق عليهم سماع ذلك وودوا لو يملكوهم لينتقموا منهم على ما كان منهم.

ولما لم تكن الدنيا دار انتقام مطلق وتقلق الخالصون من عباده لإيقاع النقمة بهم أقسم الباري باسمه جل ثناؤه والمضاف إلى نبيه بحشر الجميع الصالح والطالح في مقابلة الإنكار الروحاني والترابي وجعل الطريق الذي هو الصراط على النار حتى لا يبقى أحد إلا ويرد عليها فمنهم السوي ومنهم المكبوب وما قدروا الله حق قدره فقال تعالى:

---

(١) أخرجه ابن حجر في (الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ١٣٧)، والبيهقي في (الأسماء والصفات ١٣٧).

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ [مريم: ٦٨] مع أنكر الحشر والشياطين فهم الذين يوحون إليهم ليجادلوا أهل الحق وقد كشف ذلك الرسول وأهل الكشف ولهذا ذكروا له في المقسومين عليهم حتى يسكن ما يجده من الألم بالوعد الذي وعده الله للانتقام المطلق فافهم ما قررناه والله الهادي الموفق للإصابة.

الباب الرابع

في قسم الله جل ثناؤه بالربوبية على ضمان الرزق والجنة والضمير يعود على المذكور: أقسم سبحانه بنفسه من اسم الرب المضاف إلى السماء والأرض على نفسه أن الرزق قضاء وعد به أولياءه في السماء ومثله بالنطق منا الذي لا يرتاب فيه ليتميز المؤمن الكامل من غيره فقال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات: ٢٢] إعلم أن الإنسان موجود في برزخ كالخط بين الظل والشمس والبرزخ الذي بين البحرين فهم في العالم بين العلو وهم الروحانيات والعقول جميع العلويات وبين العالم السفلي وهي الحيوانات والنباتات والمعادن والأرض فأخبر الله أنه رب العالم العلوي والسفلي وهذا البرزخ الذي هو الإنسان مركب من العلوي والسفلي ليس شيئاً زائداً فهو أيضاً ربه سبحانه ومعنى ربه سيده ومالكه ومربيه ومصلحه ومثبته فأثبت افتقار العالم إليه في هذا القسم بهذا الاسم فالكل صنعه وخلقه وفعله.

ولما كان العالم العلوي لا مناسبة بينه وبين العالم السفلي إلا بالاستمداد والاستفادة وكان العالم العلوي يستحق اسم الرب لإفادته، والسفلي اسم الاستفادية وكان العالم العلوي متعدداً متباين الحقائق وكان العالم السفلي كذلك ولهذا قالت الملائكة: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾ [الصافات: ١٦٤] والسر الذي أودعه في فلك ما غير الذي أودعه في غيره من الأفلاك وكذلك العالم السفلي مثله فما من حقيقة في العالم العلوي إلا وقد جعل الله في مقابلتها حقيقة في العالم السفلي وهذا الموجود الإنسان جامع لهذه المعاني كلها فلهذا صحت له الخلافة وحده دون غيره من العوالم، فهو روح العالم ألا ترى الدنيا باقية ما دام هذا الشخص الإنساني فيها والكائنات تتكون والمسخرات تتسخر فإذا انتقل إلى الدار الأخرى مارت هذه السماء وسارت الجبال ودكت الأرض وانتثرت النجوم وكورت الشمس وذهبت الدنيا وقامت العمارة في الدار الآخرة بنقل الخليفة إليها ومن هنا تعرف مرتبة الإنسان على غيره من العوالم وأنه المعنى الكلي المقصود فلا بد أن يقسم له به ولغيره لأنه ليس مطلوباً.

ولما أقسم الله بهذا القسم ضجت الملائكة في السماء حيث أقسم لهم الله بنفسه لكونهم لم يثقوا بالضمان دون اليمين وغطى ذلك على الملائكة وما عذرونا وعذرناهم فلو عرفوا جمعيتنا وأنهم وغيرهم فينا لما ضجوا وعذرونا.

ولما كان الله عليماً بنا لهذا أقسم لنا فإن جمعيتنا تعطي ذلك وعذرناهم في ضجتها وإنكارها كما عذرناها حين تكلمت في أبينا آدم لأنه من تكلم في حقيقة ومن مرتبته أعذر من نفسه وما تعدى ما خلق عليه فلا بد من إيقاع هذا القسم لنا لما تقتضيه مرتبتنا من التهمة وعدم الثقة التي هي أوصاف أسافل نشأتنا وبضدها أوصاف عالية فمن يعرفنا يعرف لمن أقسم منا فيستريح ولا ينكر فإنه ما خرج عن حقيقته ولا ادعى في غير مرتبته فإن الأحوال غالبة على كل صنف من العوالم فأقسم لمن غلب حال ظلمته وأسفله.

والدليل على ما قلناه أنه مع هذا القسم لم تصح له الطمأنينة بل بقي من أجل صاحب عقد على ذلك لا صاحب حال فإن حاله يشهد عليه بذلك ولهذا تضطرب عند فقد الأسباب فصرف حقيقته بهذا الحال ولم يؤثر القسم في حاله وكذلك هو في الجنة سواء لأنه لو اضطر إليها ما اضطر إلى الرزق غدوة وعشية لظهر منه الاضطراب وعدم الإيمان كما ظهر في الرزق ولكنه لما يضطر إليه تخيل أنه كامل الإيمان بها واضطرابه في الرزق يشهد عليه بالتهمة مطلقاً ولهذا وقع القسم ووقع بالسماء والأرض الذي هو وجود العالم بأسره من طريق ذاته لا من طريق حاله ووصفه وسيأتي قسمه بحاله ووصفه في الباب الخامس حتى يكمل شرف العالم كله من كونه مضافاً إليه عموماً، وشرف محمد عليه السلام خصوصاً فقد جمع له بين الخصوص والعموم بخلاف غيره من جنسه فإنه في دائرة العموم ليس له من هذا الاختصاص شرب أعني القسم باسم المضاف إليه فإن القسم بغير الاسم في القرآن كثير والإضافة إلى الاسم من غير قسم كثير وهذا له مرتبة وهذا الآخر له مرتبة وللجميع بين القسم بالاسم مضافاً إليه مرتبة أخرى ثالثة ليست تانك فاعلم والله الموفق.

الباب الخامس

في قسم الله جل ثناؤه بالربوبية على قدرته ونفوذها في تبديل الخلق بخلق آخر خير منهم، أقسم سبحانه على نفسه بالاسم الرب المضاف إلى المشارق والمغارب فقال عز من قائل في سورة المعارج من القرآن العزيز: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾ [المعارج: ٤٠ ـ ٤١].

اعلم أن الله سبحانه لما قسم بذات الموجودات أقسم أيضاً بحالها وهو الشروق والغروب وهي حالة لا تعرف إلا بوجود الكوكب والسماء والأرض فأقسم بالمشرق والمغرب لا بالشروق والغروب لأن القسم ينبغي أن يكون بالثابت لا بالزائل والمشرق ثابت والشروق زائل فأقسم بالذات من كونها مشرقاً ومغرباً فربط الصفة بموصوفها وأقسم بالجمع لأنها مشارق ومغارب كثيرة وهي شهادته وغيبته وظاهره وباطنه وفي عالم الجسوم وفي عالم الأرواح وفي الدنيا وفي الآخرة وفي الجنة وفي النار وفي الحجب وفي التجليات وفي الجمع والفرق وفي المحو وفي الإثبات وفي الفناء والبقاء في السكر

والصحو وفي اليقظة والنوم وفي كل حال من أحوال الوجود مطلقاً فكما أقسم بذوات الوجود مطلقاً أقسم بها من حيث أحوالها مطلقاً فلم يترك شيئاً بعد هذا ينبغي أن يقسم به.

ثم اعلم أن القدرة الإلٰهية لا يعسر عليها إيجاد ممكن البتة ولكنها إذا لم توجد ممكناً من الممكنات فإن ذلك راجع إلى الإرادة لا إلى القدرة.

ثم لتعلم أن الموجود ذات قد كملت أجناسها وأركانها فكل ما يظهر فإنه منها وفيها فلم يبق التبديل سواء في الصور والأشكال فهو تبديل عرضي كما تبدل السماء والأرض وكما تبدلت النطفة علقة والعلقة مضغة وكما تبدلت لنا اللقمة دماً ثفلاً وهكذا بقي التبديل فإن كان التبديل من كون إلى كون كتبدل الماء هواء وشبه ذلك فهذا تبديل الأعيان، وإن كان التبديل من صفة إلى صفة كالأبيض يصير أحمر والأحمر يصير أخضر والبارد يصير حاراً فهذا هو تغيير الموصوفات بالصفات لأن الحمرة عادت خضرة كما استحال الماء هواء فهذا هو التغير وإن كان عندنا المائية والهوائية والنارية والأرضية صوراً في الجوهر يسمى بها هواء وماء وغير ذلك ولكنه إدراكه أغمض من إدراك تبدل الأحمر أصفر ولا الأبيض أسود فاعلم ذلك وهذا الخبر الذي وصف الله نفسه بتبديل الخلق في عمارة الموطن يحتمل أن يكون على الأمرين اللذين ذكرناهما إذ الذوات مشتركة في الجوهرية مماثلة واختلافها بالصور والأشكال والحدود الذاتية لها إنما هي ذاتية للصور والشكل لا للمشكل والصور ولكن لا يفعل هذا الشكل في العين إلا في المشكل فيظن الظان أنه يجد المشكل وهو على الحقيقة إنما يجد الشكل لكنه لا يقدر أن يتصوره في غير متشكل فقد بان لك التبديل في الخلق وأن القدرة لا تعجز عن ذلك فإن لم تفعل فإن الإرادة لم تعلق به ولا سبق في العلم تبدله ووقع الخطاب بما يقتضي حقيقة الممكن، تمت الأبواب وهذه فصولها تتلوها.

الفصل الأول

في روحانية الباب الأول، رب الإيمان في العيان عين التحكيم لأهل التفهيم، حرف الغاية لأهل البداية، شجر الخلاق يذهب حقيقة الائتلاف، التثنية لا تصح إلا في الروحانية مع الطينية، الوجود لأصحاب العقود، النفوس عالم متوسط بين المعقول والمحسوس، الحرج في أول درج في آخر درج، حرف التبعيض في التمريض، وحرف التبيين للتبعيض، الأسماء الناقصة للذوات الناكصة، القضا فيما قد مضى، حرف الخطاب للأحباب، حرف الظرف لأصحاب الحرف، حرف العطف لأصحاب القطف، تسليم الحال لأهل المحال، ضمير الجماعة لإضمارهم الساعة، التأكيد بالمصادر لالتحاق الوارد بالصادر، واو القسم تعظيم النسم[1]، حرف النفي خارج عن الرأي

(١) النَّسَمُ: نَفَس الروح. ونسم الريح: أولها قبل أن تشتد. و ـ: الخلق والناس (ج) أنسام.

حذف الحروف للعوامل تبيين في المسائل، ضمير الغائب للأجانب.

الفصل الثاني

في روحانية الباب الثاني، رب السؤال حقيقة في المنال، السؤال على النور الذي مال ضمير الغائبين في المحجوبين، التأكيد بالجمع من أجل الصدع، حرف يجاوز الأشياء لإثبات الأنباء، ما الكون لنقصان العين الكون الجامع للمعطي والمانع والضار والنافع الأعمال نتائج الأحوال الأمر بالإمضاء تنفيذ القضاء، حرف الإلصاق لوجود الاتساق المأمور مغرور الأعراض للأغراض والاعتراض الإشراك عقد الإشراك كناية الجمع عن الواحد تعظيم الشاهد، الكفاية عين الحماية، الاستهزاء البادي سم الأعادي، سريان المنافع في الأشياء سبب حمل الآلهة على السواء، الاستئناف المعرف بلاء مضعف، الضيق عن الغيرة باب الحيرة التسبيح بحمد الرب دليل على المقام الرب، الدليل توسل للتوصل، إتيان الموت حسرة الفوت.

الفصل الثالث

في روحانية الباب الثالث، الحشر للبشر، إنكار المعاد فساد الجهل بالبدء علامة الجهل بالخبء، الشياطين سلاطين الحصور إلا زاد بعض ابتلاء القعود على الركب علامة النوب التفريق لإظهار التحقيق الورود تناقص العقود، الجيم عين الجيم عطف المهلة عين العلة.

الفصل الرابع

في روحانية الباب الرابع، السماء دون الاستواء، الأرض طبقات الخفض، الحق مدرج في الحق، حرف التوكيد علامة التبديد، الرزق والجنة بابان للمنة فتحهما من غير منة، ومن شرط الواحد السنة، ومن شرط الآخر وجود العنة، الرزق سبب النطق.

الفصل الخامس

في روحانية الباب الخامس، في المشارق والمغارب تحصيل المذاهب، مشرق الأبصار طلوع الأنوار، ومغرب الأبصار وجود الأسرار، ومطالع العقول مشارق النقول، مغارب العقول السر المدلول، مشرق النفوس طلوع التجنيس، مغرب النفوس حضرة التقديس، مشرق الأرواح شروق الإيضاح، مغرب الأرواح أنفاس الرياح، مشرق الأسرار شروق الاستظهار مغرب الأسرار مشاهدة الظهار، التبديل دليل التحميل، النفوذ الاقتداري لا يسبق لارتباط الموجودات بالحق.

تم الكتاب بحمد الله ومنّه